الوضع السياسي والإداري في وادي سوف(1854-1892)م

من خلال وثيقة بيوغرافية لقايد محلي

The political and administrative situation in Oued Souf (1854-92)
Through a biographical document of a local leader

د. الجباري عثماني

otmani0037@gmail.com

جامعة حمّه لخضر بالوادي، الجزائر

تاريخ الاستلام: 2019/12/15 تاريخ القبول للنشر: 2019/12/27 تاريخ النشر: 2020/07/03

ملخص:

تستند هذه الورقة البحثية على الوثائق الأرشيفية، والتي تعالج جانبا من الأوضاع السياسية والإدارية لمنطقة وادي سوف بالجنوب الجزائري، منذ أن وطئت أقدام المستعمر الفرنسي الإقليم إلى نهاية القرن التاسع عشر، والدراسة في الأساس تعتمد على وثيقة منتجة محليا؛ عبارة عن بيوغرافيا أو سيرة ذاتية لشخصية قيادية محلية هامة، في شكل رسالة إدارية طويلة وثريّة بالمعلومات، موجهة للحاكم الفرنسي بالمنطقة.

كلمات مفتاحية: الوثيقة؛ المستعمر؛ الإدارة؛ القايد؛ بيوغرافيا.

Summary: This paper is based on archival documents, dealing with an aspect of the political and administrative conditions for Oued Souf area in the South of Algeria, since his feet the French colonized the territory to the end of the nineteenth century, the study basically depend on locally produced document; a Biography or autobiography of important local leading figure, in the form of a management letter is long and rich in information, addressed to the French Governor.

key words: document; Colonizer; Administration; Gaïd; Biography.

مقدمة:

وبحكم أن الموضوع ينطلق من وثيقة بغض النظر عن نوعها، نقول، أنه لا يمكن قراءة التاريخ عموماً دون الرجوع إلى الوثائق، والتي هي بمثابة الشواهد على أحداثه ومساراته ومحطاته، والباحث الذي يكتب التاريخ دون أن يحصل على مجموعة من الوثائق الأساسية الجديدة، أو التي لم يكن قد سبق استخدامها استخداما علميا مكتملا؛ تنقص قيمة بحثه العلمية أو تتضاءل أو تنعدم، وحيث لا توجد الوثائق ينعدم وجود التاريخ[1]، ومنهم من يعتبر أن "الوثيقة" مرآة للتاريخ، والبعض الآخر يرى فيها نبض حركة الجماعة أو الفرد في حقبة غابرة؛ وفي هذا الإطار جاءت هذه الدراسة معتمدة على وثيقة منتجة محليا عبارة عن بيوغرافيا[2] أو سيرة ذاتية لشخصية قيادية محلية هامة.

وقد شكّل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، منعرجا خطيرا في حياة الجزائريين عامة وسكان الجنوب خاصة؛ حيث وأن المنطقة شهدت اجتياح المستدمر الفرنسي البغيض. ونحاول في هذا الموضوع أن نستجلي تجليات غزوه للمنطقة، وسياساته المنتهجة تجاه الساكنة في هذه الربوع، وذلك بالاعتماد على وثائق أرشيفية دُوِّنَت في ذلك العصر، وأهمها تلك الرسالة الإدارية الطويلة والثريّة بالمعلومات؛ والتي فضلنا أن تكون محور وعماد هذه الدراسة، مع اللجوء إلى وثائق أرشيفية أخرى ومصادر ومراجع تناولت تاريخ المنطقة؛ وذلك للتحقيق والإثراء.

ويَعْتبِر الباحث سعد الله أن الرسائل ثروة للدراسات الأدبية، رغم أن في أغلبها إدارية جافة تفتقر إلى رونق الكتابة، فإنها مرجع للباحثين عن الأساليب الأدبية في فن كتابة الرسائل، كما أن خطّها وألفاظها وديباجتها وخاتمتها تغري بالدراسة والتأمل[3]. وإن إقدامنا على نشر هذه الرسالة ينبع من قناعتنا بأنها ثروة تاريخية هامة؛ وتكمن أهميتها في أنها تلقي أضواء على حياة أصحابها أنفسهم، تفكيرا ومعيشة وأخلاقا، وإنها تطلعنا على

جانب هام من تطور الحياة الجزائرية خلال القرن 19م، ولا سيما الجانب السياسي والإداري، وتكشف على كثير من أسماء القيادات العسكرية الفرنسية التي حكمت منطقة سوف أو تلك التي زارتها في العهد الفرنسي. وكما تبرهن الرسالة على ما وصل إليه خضوع بعض رجال الجماعات القروية السوفية الذين اختاروا الركون تحت ظل النظام الاستعماري، وعلى مدى تذلل هؤلاء أمام السلطة الفرنسية، فهم لا يُقررون وحتى يقترحون فيكون بطريقة العبد لسيده[4].

1- تقديم الرسالة:

جاءت الوثيقة في شكل رسالة إدارية مؤرخة في 03 أكتوبر 1892م الموافق لـ 1310/03/12هـ، مُوَجَّه إلى حاكم ملحقة الوادي آنذاك، ومن شخصية سوفية قبلية مُهمة، ولعل كتابة هذه الرسالة كان بأمر من الحاكم كما جاء في العبارة المدونة في عجز الوثيقة، "والسلام من كتب بأمره خديمك السيد علي بن أحمد..". ويستجدي هذا الأخير فيها الحاكم المذكور، عله يحصل على منصب أرفع من جنابه، ويُبيّن فيها إخلاصه وتفانيه في خدمة فرنسا منذ أن حطّت رحالها في المنطقة إلى وقت كتابة هذه الرسالة[5]؛ والتي يمكن أن نعتبرها تقرير سيرة ذاتية حول خدمة الكاتب للفرانصويين؛ كما يحلوا للكتاب القدماء تسميتهم.

وفي ما يخص الصحة الدبلوماتيكية أو الشكلية للوثيقة، فالوثيقة مودعة في الأرشيف الولائي لولاية الوادي، مصنفة ضمن الوثائق التي تعود إلى الحقبة الاستعمارية، وضمن الحافظة التي تحوي الوثائق الخاصة بالقياد والخلفاء الذين حكموا المنطقة باسم فرنسا. تتكون من أربع صفحات، مكتوبة بخط مغربي جميل وواضح، وبلون أقرب إلى البني لطبيعة المداد الذي كُتبت به وهو الصمغ(الدواية). أما مظهر الوثيقة الخارجي، فالمسطرة تتكون من 28 سطرا، والمقياس 19/29سم. وفيما يخص وضعية الوثيقة فهي في حالة جيدة جدا، نتمنى فقط من القائمين على الأرشيف المحافظة عليها، ونسخها مع بقية

الوثائق بأجهزة التصوير الحديثة؛ حتى يتسنى للباحثين استغلالها من جهة، وضمان عمر أطول للوثيقة عندما تتجنبها الأنامل البشرية من جهة ثانية.

لغة الوثيقة، مكتوبة بأسلوب يكاد يكون عاميا أو هو أقرب إلى العامية منه إلى الفصحى، أو نقول، هناك تداخل ما بين اللغة العربية الفصحى والعامية واللغة الفرنسية. والصفحة منها مقسمة إلى نصفين طوليا، الشق الأيسر مكتوب بالعربية، وعلى الشق الأيمن ترجمه كاملة للنص بالفرنسية؛ لأن مصالح الترجمة كانت هي الواسطة بين صاحب الرسالة، والسلطة الفرنسية المتحكمة والمقررة[6]. أما علامات الإثبات التي تدل على صحة نسب الوثيقة لصاحبها، فتمثلت في الختم الذي عليه اسم القايد(صاحب الرسالة) والمثبت في أسفلها، مشفوعا بتوقيعه الشخصي.

2- ترجمة لصاحب الرسالة:

لم تتوفر لدينا معلومات كافية حول شخصية صاحب الرسالة، غير بعض الشذرات التي استقيناها من متن الرسالة، ومن صاحب الصروف، ومن بعض الوثائق الأرشيفية. وهو السيد: "علي بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن أحمد بن عون بن خالد بن عبد العاطي الزبيدي"، نسبة إلى زبيد وهي قبيلة كبيرة نزحت من اليمن، وحين دخل العرب افريقية تفرقت في أرجائها، ومن الزبيديين من سكن الوادي وانتمى إلى عميرة جبيرات بالأعشاش. ومن فصائل هذه العميرة "الزبدة" التي ينتمي إليها مترجمنا، وهم أصحاب القيادة على جميع أولاد سعود وسيدي عون إلى وقتنا الحاضر كما يقول العوامر[7].

وُلِد مترجمنا حوالي سنة 1817م، لكننا لا نعرف عن ظروف نشأته وتعلمه إن حضي بالتعلم، كان رجلا ناضجا أيام الغزو الفرنسي للمنطقة (1854م)؛ لتبوئه كبير عرش كما يقول عن نفسه في صدر الرسالة. وفي إطار السياسة الفرنسية لمحاولة استمالة كبار العروش والقبائل من الجزائريين مقابل فتات من المناصب الإدارية، دخل مترجمنا في هذا الشراك منذ الوهلة الأولى إلى زمن كتابة الرسالة الذي يقارب أربع عقود، تقلد عدة

مناصب إدارية من شيخ لبلدة كوينين سنة 1872، إلى خليفة على أولاد سعود سنة 1874، ثم إلى قايد على العرش نفسه في 25 أوت 1884م وبقي في هذا المنصب إلى وفاته سنة 1900م[8].

فتلكم الفترة الطويلة التي قضاها مترجمنا في خدمة الفرنسيين، تركت بصمات واضحة في شخصيته تتجلي وبوضوح في تأثره بالثقافة الفرنسية، ويبرز ذلك من خلال ما دَوَّنه في رسالته المزبورة، كاستعمال التاريخ الميلادي دون الهجري، وتوظيف المصطلحات الفرنسية كالرُّتب العسكرية، ويُدوِّين الأسماء العربية على الطريقة الغربية خلافا للطريقة الإسلامية المتبعة والمتوارثة في المنطقة، خاصة وأن قانون الحالة المدنية المفروض على أبناء الشمال الجزائري منذ ثمانينيات القرن 19م لم يطبق في الجنوب(المنطقة العسكرية) إلا في أواخر العقد الثالث من القرن العشرين. والجدير بالملاحظة هو أن مترجمنا تعزوه الدِّقة في وضع تواريخ الأحداث؛ وذلك راجع ربما لطول المدة وكثافة أحداثها.

3- مضمون الرسالة:

تعتبر الوثيقة مصدر تاريخي في غاية الأهمية؛ لأنها صدرت من مسؤول محلي وشخصية قبلية غير عادية كما أسلفنا، عايشت الأحداث بل من صُناعها، ويبدو أنه يملك ثقافة لا بأس بها، وعلى اطلاع واسع لما يجري حوله. تغطي الوثيقة زمنيا النصف الثاني من القرن 19م، حيث شهدت تلك الفترة تحولات سياسية على الصعيدين المحلي الجزائري والدولي، كما عرفت هذه العقود من الزمن محاولات المسخ والفسخ والنسخ – على حد تعبير المرحوم مولود قاسم – للهوية والشخصية الجزائرية من طرف المستدمر الفرنسي. وفي ما يأتي نوجز في نقاط أهم ما احتوت عليه الوثيقة.

– السطور الأربعة الأولى، احتوت بعد التحية بما يليق بمقام الحاكم الفرنسي كعادة رسائل ذلك الزمن، الطلب من الحاكم أن يطَّلع على خِدمته مع حكام فرنسا الآتي ذكرهم على حد قوله.

– تَعْرِض الرسالة أسماء بعض الشيوخ المعينين من قبل السلطات الفرنسية في سوف، وتبين دور كاتبنا في وأد الفتنة – صراع الفرق والصفوف – التي اندلعت في وطن سوف 1871م، وتوليّته نتيجة ذلك شيخا على كوينين، وعزل الشيوخ السابقين.

– وتُظهِر الوثيقة طبيعة العلاقات بين سوف وبعض قبائل الجنوب التونسي؛ وتكشف عن تحرج الوضع بملاحقة محلة الباي التونسي لقبيلة الهمامة داخل أراضي الوادي.

– تعرض الرسالة أمرا هاما، وهو مسألة استغلال الأهالي في التخابر على دولة تونس لمراقبة الأوضاع، وخاصة في منطقة الجريد المتاخمة لسوف؛ وتشكيل طابور خامس من بعض السوافة في المنطقتين؛ ومشاركة هؤلاء مع الطوابير الفرنسية التي غزت تونس من جهة الجنوب سنة 1881م.

– وتُشير الرسالة إلى أول زيارة يقوم بها الحاكم العام الفرنسي في الجزائر إلى سوف، والذي قام بترقية صاحب الرسالة إلى رتبة قايد على أولاد سعود في سوف؛ مقابل تفانيه في الخدمة.

– وتختم الرسالة باستجداء الحاكم؛ حتى يُنعم عليه بما تيسر من حرفة الدولة الفرنسية، ثم يدعوا له بالخير والسلام، ويقفل بالعبارة من خديمه، القايد (اسمه)، مع ختم الرسالة بالطابع الرسمي للقايد.

وفي عرضنا للرسالة سنحاول أن نذكر النص كما وجدناه، ثم نُنبه على ما فيه من أخطاء، ونعلق على ما فيها من أخبار تاريخية، مع إعطاء لمحة عن الشخصيات المذكورة، وتحديد أسماء المواقع والمواضع في حدود الإمكان. وقد قمنا بترتيب وتنظيم نص الرسالة على شكل فقرات، ووضع النقط والفواصل، وقد كان قبل ذلك نصا واحدا متصلا دون فواصل ولا فقرات، وفي ما يأتي نص الوثيقة كاملا:

4- نص الرسالة:

«أسعد الله أحوال المعظم المحترم سعادة السيد القبطان الحاكم الكبير[9] بالوادي صانه الله آمين، السلام عليكم ورحمة تعلى(كذا) والبركة، وبعد:

سيدي نطلب من كريم فضلك لتطلع على خدمتي مع حكام الدولة الفرانصوية الآتي ذكرهم، وسبب ولايتي أنه لما أتى سعادة السيد الجنرال "ديزفوا"[10] إلى سوف أول مرة[11] وخدمت له جميع أناس سوف بالهناء والعافية، ولما رجع من سوف ترك فيها مشايخ من أولاد سعود وسوف، ونحن في ذلك كبير عرش وصرت نخدم في المشايخ الذي(كذا) جعلهم سعادة السيد الجنرال المذكور. حتى وقع الشر في وطن سوف بين أولاد سعود وأناس الوادي وغيرهم[12] وذلك في سنة 1871م[13]، ولما نظرت إلى تلك الوقعة وما جرى فيها من القتل، رسلوا(كذا) إِلَيَّ كبار إخواننا أناس الوادي على أن يكفوا علينا الشر الواقع، فاجتهدت نحن في ذلك، حيث أن أناس الوادي لنا معرفة بهم ويطيعوني فيما نقوله لهم، فاتفقنا على أن نجتمعوا ببلد البهيمة فأخذت معي عدد 10000 عشرة آلاف فرنك، وقدمت لهم وصالحتهم على قطع الشر بيننا، ودفعت لهم تلك العدد فقبلوه مني ومن ذلك الوقت ونحن في العافية بيننا.

وفي يوم 28 من شهر فيفري سنة 1872م[14] أتى سعادة السيد الجنرال "لُكروَ"[15] ومن معه السادات الحكام، فذهبت له إلى تقرت نحن ومشايخ أولاد سعود وقابلناه وبحثنا على سبب الفتنة التي وقعت في سوف وعلى إبطالها فأعطيناه الخبر كما كان، فوجدني نحن السبب في ترك الشر وإبطاله. ولما توجه سعادة السيد الجنرال المذكور من تقرت إلى سوف عزمت نحن قبل خروجه من تقرت؛ وجعلت أبيار في طريقه، يعني في أميه القايد وأميه فاطمة ومعي قِرَبْ من الماء لتشرب منه المحلة؛ [وقد] خشيت أن يدركها العطش، وبقيت على تلك الحالة حتى وصل سعادة السيد الجنرال المذكور بالمحلة إلى سوف، ولما صار يبحث على الذي كان السبب في إبطال الفتنة وجدني نحن السبب في إبطالها؛ فعزل المشايخ الذي(كذا) كانوا بكوينين وهما: بوبكر بن عباس، والحاج بالقاسم بن

السخري، وولاني نحن شيخا على كوينين مكافة[16](كذا) لخدمتي مع الدولة الفرنسية السعيدة، ودفع إليَّ "التظمين"[17](كذا) في يوم 28 فيفري 1872م، وتوجه سعادة الجنرال المذكور بالمحلة راجعا بالهناء والعافية، وبقيت نحن نخدم شيخا على كوينين متبع الأمر الذي أوصونى(كذا) به السادات الحكام، وكلما يتوقع من أمر الشر في سوف(؟) فنكون نحن السبب في إبطاله.

حتى إلى يوم 13 جوليت سنة 1884م[18] أتى إلينا سعادة السيد الجنرال "ليبير"[19] وقمت في خدمته كما هو الواجب عني؛ فأنعم عليَّ بوظيف خليفة على أولاد سعود، ولما توجه من سوف إلى بسكرة ركبت معه ومعي أناس من أولاد سعود لنحرصوه(كذا) حتى وصلناه إلى "أميه التاجر"[20] ومنه سرحني فرجعت إلى كوينين، وبقيت نخدم بما أمرتني به الدولة الفرانصوية حتى إلى أن تولى سي "محمد بن الحاج بن إدريس" آغة على تقرت وسوف، وقد أمروني السادات الحكام بالخدمة معه.

وفي سنة 1874م أخبروني السادات الحكام الذي ببسكرة لنحضر عند السيد الآغة المذكور، فحضرت عنده، فقال لي أن السادات الحكام فأخبروني بأن نرسل معك أخينا الحاج أحمد إلى سوف، وتذهبوا معا وتُرْجِعوا نجع الهمامة الماكثين في الدبيلة الفارين من حكم تونس؛ فرجعت إلى سوف ومعي الحاج أحمد بن إدريس فركبنا معا وذهبنا إلى الدبيلة لنرجعوا النجع المذكور، فوجدنا الفاريك المسمى "بن عبد الله بن اجويني" وصحبته محلة من حكم تونس لحقت بأثر النجع ووقع بين الفاريك والنجع فتنة كبيرة. ثم رجعتُ وأخذت عدد 800 ثمانماية نفر من أولاد سعود، وأرجعت النجع والفاريك على رسم سوف حتى وصلتهم إلى بير يسمى بوناب[21]. ثم رجعت إلى كوينين، فوجدت البعض من أناس الهمامه مجروحين فجمعتهم وأرجعتهم إلى أهلهم. ثم بقيت نبحث هل نجد منهم، فوجدت أناس آخرين نازلين بالوادي حتى قَدِم إلينا سعادة السيد الكمانده "كروزي"

ومن معه من الكلون، فتعرضته(كذا) حتى نزل بالوادي فذهبنا ورَجَّعْنا تلك الناس النازلين بالوادي حتى إلى رسم الجريد، ورجع سعادة السيد الكمانده المذكور سالما إلى بسكرة.

وفي سنة 1877م أتى إلينا سعادة الكمانده جوليس وصحبته سي محمد بن الحاج بن إدريس وقت ولايته آغا على تقرت فقط دون سوف، فأنعم علينا سعادة السيد الجنرال شانزي والي ولاية الجزاير بوظيف خليفة مستقل وندفع الرابول[22] إلى الحكام ببسكرة؛ فسرت نخدم معهم وممتثل لأمرهم، وكلما يتوقع من الأخبار ومثل ناس القبلة[23] وغيرهم إلا ونخبر بها السادات الحكام. وجميع ما يأتي لنا حاكما من الحكام إلا ونلاقيه بالفرح والسرور ونخدمه أحسن الخدمة حتى يرجع من عندنا سالما. وفي سنة 1880م أتى إلينا الليطنة محمد بن عمار ومكث في الدبيلة مع الطاشمة[24] متاع الصبايحية، وكلما يتوقع من الأخبار من الجريد وغيره إلا ونخبره به.

وفي سنة 1880م أيضا أتى إلينا سعادة السيد القبطان "ديبرتير"[25] وبقى حاكما على سوف وابتدأ في تخديم(كذا) الجريد، وسارت أناس من الهمامه يغيروا على أناس من سوف مثل عام بوقمزة[26] وغيره، وجميع ما يأتيني خبر من الجريد من عند أبناء عمي الساكنين بالجريد مثل: عبد الله بن علي، وأحمد بن المازق، وبلقاسم بن بوعكاز، وعمر بن الذهبيي، ومحمد تونسي بن صالح بن مبارك؛ إلا ونخبر بذلك الخبر السيد القبطان المذكور، حسبما أخبرته بجواب مؤرخ يوم 23 ديصامبر 1881م[27]، وبجواب مؤرخ في يوم 28 أكتوبر 1882م. ولما أتت المحلة إلى سوف وصحبتها السيد الكولونيل "نوبل"[28] وبقي في الوادي سنة 1881م، هربوا من المحلة المذكورة زوج أنفار من عسكر اجويُّوا[29] وأخبرني السيد الكولونيل المزبور لنلحق بأثرهما ونرجعهما إلى المحلة؛ فامتثلت الأمر وركبت ولحقت بأثرهما على طريق تقرت، فعثرت عليهما في موضع يسمى سيف سلطان؛ فمسكتهما ورجعتهما إلى الوادي.

وفي سنة 1881م أتت أحد الطاشمة من العسكر على طريق تقرت محتوية على عدد 500 عسكري في طريق تقرت، فنهضت وتلاقيتها صحبة السيد القبطان دبرتير ووقع لهم التعب والعطش في تلك الطريق؛ فعزمت لهم بالماء من كوينين مخملا في القرب، وشربت تلك الطاشمة حتى اكتفوا، حيث أن ذلك الوقت صيفا، وكان [قد] تخلف من الطاشمة المذكورة كثير من العسكر حيث أنهم لم يقدرون على المشي، فنهضت وأخذت معي البعض من الحمير وذهبت لهم وركّبتهم(كذا) على تلك البهايم ووصلتهم إلى الوادي.

ولما عزم السيد الكولونيل نوبل والسيد الكمانده لفروه والسيد القبطان ديبرتير على الذهاب إلى الجريد وصحبتهم المحلة، فسافرت معهم إلى الجريد وأخذت معي البعض من أناس أولاد سعود، ولما وصلنا إلى بوناب تلاقونا أبناء عمي الذين هم ماكثين بالجريد؛ ليتلاقوا السادات المذكورين في البير(بئر) المسمى بوناب، ويدخلوا بالمحلة إلى الجريد حيث أنني أوصيتهم وحرضتهم سابقا ليكونوا خُدام طايعين للدولة الفرانصوية حيث أنها ما تريد إلا الخير والصلاح والعافية والهناء؛ فامتثلوا أبناء عمي وتلاقوا السادات المذكورين في البير المزبور وفرحوا بهم فرحا شديدا، وشكروا صنيعهم السادات المزبورين.

وفي سنة 1884م قدم إلى تقرت سعادة السيد القفير "نورتيرما"[30] والي ولاية الجزاير وتلاقيته بتقرت صحبة الليطنة "بلاشير"[31] وقت ولايته بسوف، ومن تقرت توجه إلى سوف، ولما رجع ووصل إلى الجزاير أنعم عَليَّ بالارتقاء في وظيف القيادة على أولاد سعود وذلك في يوم 25 أوت 1884م. وفي السنة المذكورة أتى سوف السيد القبطان "جنا"[32] وبقا(كذا) حاكما على بيروا عرب الوادي. فإذا بأحد الطاشمة واردة من تقرت إلى سوف، فلما وصلت في موضع يسمى صلوبه(؟) تخلف أحد العسكري فرانصوي من الطاشمة المذكورة وما افتقدوه إلا في الوادي، فأخبروني السادات الفسيالات[33] الذين هم في البيروا، السيد "بوجا"[34] والسيد القبطان الجيني[35] لم نعرفوا(كذا) اسمه، وأمروني لنبحث

على تلك[ذلك] العسكري المفقود من الطاشمة؛ فركبت من حيني وصرت نبحث عليه نحن من ثلاثة أيام، فوجدته في موضع أميه الرَّال من الطيبات قبلة(جنوبا) وآل أمره الضياع من الجوع والعطش، فطعمته وسقيته فرجع إلى حاله كما كان وأتيت به إلى الوادي. ومن ذلك الوقت ونحن ملازم الخدمة في وظيفتي على أحسن حال، والآن نطلب من كريم فضل سعادة القبطان "ريكوا" أن يُنعم علينا بما تيسر منه من حرفة الدولة الفرانصوية، حيث أن مزاياه علينا أولا وآخرا ولا عندي أحد أطلبه سوى الله ثم أنت ونظرك أعلا، ودمت بخير والسلام من كتب بأمره خديمك السيد علي بن أحمد قايد أولاد سعود بالتاريخ أعلاه».

4- تحليل محتوى الوثيقة:

تحتوي الرسالة على مادة دسمة تؤرخ لفترة النصف الثاني من القرن 19م، والتي تنعدم فيها الكتابات التاريخية المحلية من أناس عاشوا الحدث وكانوا أحد صانعيه. وفي الفقرات الآتية نحاول التطرق إلى ما أشارت إليه الرسالة في مضمونها تصريحا أو تلميحا، بداية من التعرض إلى الصراع القبلي القروي في سوف وأثره على المنطقة، ونبرز صورة من العلاقات السوفية- التونسية من خلال الإغارة والإغارة المضادة بين القبائل، ونختم بالإشارة إلى الوضع السياسي والإداري المحلي في سوف.

إن ظاهرة الصراع القبلي قديمة ومعروفة عند العرب، حتى كانت رواياتها مصدر فخر لدى البعض يتشوق لسماعها، ويتوق لمعرفة خبرها بأشكالها الأسطورية الجذابة[36]. وأطلق كاتبنا على هذه الظاهرة صفة الشر، بقوله: "حتى وقع الشر في وطن سوف بين أولاد سعود وناس الوادي(طرود) وغيرهم"[37]. وشَكّل الصراع بين قبائل سوف فصلا هاما من فصول هذه الظاهرة في الفترة الحديثة، تشْتدُّ وتضعف تبعا لولاءات ومجاذبات خارجية. وفي غياب سلطة مركزية في العهد العثماني وحتى بداية العهد الفرنسي، تَبْسِط نفوذها في المنطقة قادرة على الحماية والعقاب، اتخذت القبائل طريقة لاستمرار حياتها وحماية

نفسها، فكانت الحاجة المادية والدفاعية والأمنية تدفعها جبرا في اتجاه الصراع مع غيرها؛ مما كان له أسوء الأثر على الأطراف المتصارعة في الأرواح والأرزاق[38]. وتبرز مظاهر التوتر بين قبائل سوف في الغارات المتبادلة بينها؛ وما نتج عنها من أضرار بشرية واقتصادية.

ويعود الصراع بين العرشين الكبيرين "عدوان" و"طرود" في وطن سوف إلى نهاية القرن 14م، منذ استيلاء أبناء طرد[39] الذين حلوا بالمنطقة في حدود 800هـ/1397م على قصور عدوان في "اللُّجَّة"[40]، وقد حصلت معارك كبيرة بين الطرفين راح ضحيتها أرواح كثيرة، وخسائر مادية جسيمة[41]. ومنذ ذلك الزمن سكن كل منهما قرى متجاورة، كما أسسوا أخرى لزيادة عددهم وخاصة طرود، الذين عُرفوا بكثرة جمعهم وقوة سطوتهم، ويروي العدواني في شأن هذه القبيلة ما نصه: "أن عدوان يملكوهم طائفة من العرب يسمى أميرهم بطرد وتسمى قبيلته بطرود، وهم أهل سوف، ولا يكون لهم غالب فيها، ولا يخرجهم أحد إلا الله إلى أن تقوم الساعة"[42].

وقد أُطلق على عرش عدوان اسم "أولاد أسعود"، ويعود سبب هذه التسمية إلى الخلاف الذي وقع بين أهل تغزوت، وأحمد الشابي التونسي الذي وصل إلى حد العداوة والاقتتال، فأتو إلى رجل شريف كان نازلا بقبته بقرب قرية جلهمة، ويدعى"الشيخ اسعود"، فأمرهم بتوحيد كلمتهم وتسليم قيادتهم إليه قائلاً: "أنا سَيِّدكم وأنتم أولادي ... ولا تسمون أحد إلا باسم أولاد اسعود"، فشاع الخبر في كافة القبائل، وانضم إلى أولاد اسعود سكان بعض القرى الأخرى مثل: الزقم، وكونيين، وورماس، وسيدي عون، وأصبح سكان هذه القرى مجتمعة يطلق عليهم "أولاد سعود"[43].

وقد تحول صراع العروش(طرود، أولاد سعود، الربايع، الفرجان) أو القلاقل كما يصفها صاحب الصروف بين قبائل سوف، في منتصف القرن الثامن عشر ميلادي، وتحديدا سنة 1754م إلى صراع قروي؛ فكانت الوادي ضد كوينين، وقمار ضد تغزوت، والبهيمة ضد الزقم، والدبيلة ضد سيدي عون، والدبيلة الشرقية ضد الدبيلة الغربية. ومن

الصراعات القروية كنموذج، هناك واقعة البوبليك في سنة 1848م، حيث اشتعلت نار الفتنة في كل أنحاء سوف، وليس هناك واقعة من أحداث سوف تشبه هذه الواقعة كما يقول الشيخ العوامر، فقد باغتت كوينين يساعدهم بعض التقرتيين الوادي، ولما بلغ الخبر أهل البهيمة باغتوا الزقم، وباغتت قمار تغزوت واشتعلت الشرارة في كل قرى سوف ومات من جراء ذلك خلق كثير، ثم سعى أهل الخير والصواب إلى إطفاء نار هذه الواقعة. كما وقعت مناوشات في بداية الخمسينيات من القرن 19م بين أهل الزقم والبهيمة بسبب قطع حجر التافزة المعد للبناء من أرض البهيمة إذ الزقم لا حجر لها[44].

وامتدت الصراعات القبلية في سوف حتى بعد غزو الفرنسيين للمنطقة، وأخذ أشكالا متعددة، والمعروف أن سكان الإقليم مارسوا التجارة وتمرسوا في هذا منذ زمن بعيد، وقد طال صراع الصفوف حتى في ميدان التجارة، وخاصة تجارة البارود المربحة، ونذكر كمثال على ذلك قضية تمويل الثائر الصحراوي "بوشوشة" بالسلاح، ففي آخر صيف 1871م استعمل فريق ابن قانة في سوف(تاغزوت وكوينين والزقم) علاقاتهم مع فروع الرحمانية في الجنوب التونسي للحصول على كمية كبيرة من البارود، وعرضوها للبيع إلى بوشوشة؛ ولكن صف بوعكاز(الوادي وقمار والدبيلة) قاوم هذه الصفقة على أمل كسر احتكار الصف الآخر لتجارة البارود المربحة. وبعد منازعات في شوارع تاغزوت أدت إلى جرح أربعة وعشرين شخصا، أجبر باعة البارود على دفع خمسة وعشرين ألف فرنك إلى قمار وحلفائها، وهو المبلغ الذي دفع إلى بوشوشة في شهر ماي وكتعويض على النهب وقتلى قمار الذين ماتوا في هذه المناسبة[45].

وفي تلك سنة (1871م)، وقع الشر في وطن سوف بين أولاد سعود وناس الوادي وغيرهم[46] على حد تعبير صاحب الرسالة، ولعلها من ارتدادات الحادثة السابقة، وهي حادثة وقعت بين أهل الوادي وقمار من جهة وأولاد سعود من جهة ثانية، ومفادها، أنه بعد شهرين من واقعة الشريف (بوشوشة) أتى أهالي الزقم خُفية ونزلوا بتاغزوت، ثم

أشاعوا أن الشريف قادم لتخريب الوادي؛ فبعث القماريون من فورهم إلى الوادي يستنجدونهم؛ فخرج الطرودون عن آخرهم ومعهم كثير من الربايع والفرجان وذهبوا إلى قمار، واقتتل الطرفان اقتتالا عنيفا لم يعهد مثله، ووصل العنف مداه بين المتقاتلين انتهى بتخريب بعض القرى، وحرق النخيل وتجميره، وتكسير الآبار وغيرها من المفاسد العظيمة[47].

يقول كاتبنا صاحب الرسالة، "ولما نظرت إلى تلك الوقعة وما جرى فيها من القتل رسلوا (كذا) إلي كبار إخواننا ناس الوادي على أن يكفوا علينا الشر الواقع فاجتهدت نحن في ذلك حيث أن ناس الوادي لنا معرفة بهم ويطيعوني فيما نقوله لهم..."؛[48] ولعل هذا من باب النرجسية ومدح النفس عله ينال الحضوة عند سيده؛ ونعرف أنه ينتمي إلى أحد أطراف النزاع، وفي حديثه عند تدخله في هذه الأزمة يستعمل لفظ "وصالحتهم على قطع الشر بيننا". ويظهر أن هناك تضارب في الروايات، إذ لم يشير الشيخ العوامر إلى دور كاتبنا في المصالحة، والمبلغ المقدّم هو من قبل أهل الزقم، حيث يقول صاحب الصروف: فأذعن أهل الزقم وطلبوا دفع ما يطلبه الواديون، فاتفقوا على تقديم قيمة من المال، وفي الغد وجه لهم الزقيميون مالا جزيلا اقتسمه الناس وراحوا إلى مساكنهم[49]. أما كاتبنا فيقول: "... فاتفقنا على أن نجتمع ببلد البهيمة، فأخذت معي عدد 10.000 عشرة آلاف فرنك وقدمت إليهم وصالحتهم على قطع الشر بيننا ودفعت لهم ذلك العدد، فقبلوه مني ومن ذلك الوقت ونحن في العافية بيننا[50]. ومن خلال العبارة الأخيرة يبدو أن هذه آخر وقائع قرى وقبائل سوف، وبدأت الفرق بعد ذلك تجنح إلى نبذ العنف، وتحاول كبح جماح المتهورين من أفرادها، وعزّز ذلك رغبة السلطة الفرنسية خلال حكمها المباشر للمنطقة في تركيز الصلح الدائم بين القبائل السوفية خدمة لمصالحها وبسط الأمن في هذه الربوع؛ للتفرغ لمجابهة المقاومة الشعبية الشرسة في الصحراء.

وقبل أن نفصل في العلاقة بين السوافة والهمامة التونسيين؛ حري بنا أن نتعرف ولو بإيجاز عن التواصل بنوعيه السلبي والإيجابي بين السوافة والقبائل التونسية الساكنة بالجنوب، حيث لم يكن للموقع الحدودي تأثير على نمط عيش المجموعات القبلية أو على تصوّراتها، بل كانت تشترك مع بقية المجموعات الداخلية لإيالة تونس أو التابعة للإيالة الجزائرية في نمط عيشها وفي ثقافتها"[51]، وهذه الوضعية مرتبطة بطبيعة العلاقات القبلية[52] والارتباطات الدينية (طرق ومشايخ) التي تجعل منهم نسيجا اجتماعيا واحداً، يرفض الفصل والتباين، ويميل إلى الوَحدة والتكامل الاجتماعي والاقتصادي.

وقد وصف الجنرال الفرنسي "راندون Randon" الحاكم العام للجزائر – عندما حاول وضع حدود فاصلة بين البلدين – وضعية الشعبين بحالة الانصهار التام، دالاً بذلك على غياب مفاهيم الحدود العازلة بينهما، واعتبر هذا الأخير أن الخط الحدودي، لم يكن في الواقع سوى "وهم حدود" لا حدود حقيقية، لأن البلاد حسب رأيه مفتوحة من جميع الجهات[53]. وإذا كانت المجموعات القبلية في هذه المناطق، بهذا القدر من الترابط والتواصل؛ فإن ذلك لم يمنع حدوث مشاكل بينهما، جسّدتها عمليات الغزو والغارات المتبادلة بين القبائل[54]، والتي استهدفت قطعان الماشية والإبل والقوافل التجارية، وفي الفقرات الآتية نذكر بعض غارات القبائل الجزائرية على التوانسة قبل أن نفصل في علاقة الهمامة بالسوافة.

ومن ذلك، هجوم علي باي حاكم تقرت وسوف على الصلاعة وهم نازلون في ذراع بوشارب في سنة 1851م، وأخذ لهم 360 من الإبل وبعض الحلي والبنادق. وفي 1865م أغار أهل وادي سوف على أولاد يعقوب ثلاث مرات متوالية، أخذوا في الأولى 500 بعير، وفي الثانية 4500 شاة، والثالثة 200 بعير[55]. وأغار الحاكم المزبور سنة 1868م على الصابرية والجرسين وبعض قرى المرازيق كما ذكر صاحب الفذلكة[56]. إلا أن الوثيقة تقول أن علي باي وجد المنطقة خالية؛ لأن السكان علموا به من طرف عامل

الجريد، لهذا أحرق سقوف المباني وقص بعض النخيل، وقتل 15 راعيا وأخذ إبلا وأسرى، إلا أن بعض المرازيق استطاعوا اللحاق به واستعادوا بعض ما أخذوا وقتلوا عدة أشخاص[57]. ورغم استمرار عمليات النهب والسَّلب المتبادلة، إلاّ أن العروش والقبائل كانت تتصالح فيما بينها، بتدخل رجال الزوايا والمشايخ، دون اللجوء في الغالب إلى تحكيم السلطة الحاكمة في الإيالتين[58].

وقد توزعت علاقة الهمامة بالسلطة المركزية في تونس بين الولاء والمناهضة، فهي ملتزمة بالدفاع عن نظام البايات، غير أنها كثيرا ما تقوم بأعمال الإغارة على المراكز الحضرية والمجاورة، والتهرب من دفع الضرائب والخروج عن الطاعة في الأوقات العصيبة؛ لذلك نجد الهمامة قد التجؤوا إلى سوف في بعض الأحيان فرارا من بطش البايات، وهذا ما أفصح عنه صاحب الرسالة بقوله: "... وفي سنة 1874م أخبروني السادات الحكام ببسكرة الحضور عند آغة تقرت وسوف سي محمد الحاج بن إدريس من أجل إجلاء نجع الهمامة عن سوف الماكثين في الدبيلة الفارين من حكم تونس[59].

وقد أورد العوامر هذه الحادثة بشيء من التفصيل هذه حيثياتها؛ "كان في زمن ابن إدريس تعاصى الهمامة على الباي وأرادوا قتل قائدهم لكنه نجى منهم بأعجوبة، فوجه لهم الباي قوما أشداء تسلطوا عليهم فقتلوا أناسا كثيرين وفر الباقون إلى سوف[60]، فتبعتهم المحلة بقيادة الفاريك(كذا) "ابن عبد الله اجويني"[61] تقتل وتنهب إلى أن أوصلتهم إلى صحن الطريفاوي الشرقي وصحن الزقم الشرقي، ووقعت فتنة كبيرة بين النجع والفاريك، عندها صدرت الأوامر من الحكام الفرنسيين ببسكرة إلى الآغة محمد بن الحاج بن إدريس وبصحبته كاتبنا الخليفة علي بن أحمد، يقول هذا الأخير: "فركبنا معا وذهبنا إلى الدبيلة لنرجع النجع، وأخذت معي 800 نفر من أولاد سعود، وأرجعنا النجع والفاريك على رسم(حدود) سوف حتى أوصلتهم إلى بير يسمى بوناب، ثم

رجعت إلى كوينين فوجدت البعض من أناس الهمامة مجروحين فجمعتهم وأرجعتهم إلى أهلهم[62].

وكان الكثير منهم قد طُردوا من قرى سوف، فنزلوا بالوادي وأراد البعض طردهم فمنعه البعض الآخر قائلا: "أنتم أتيتم مستأجرين بنا ولا نخيب المستجير فإننا إن عاملناهم بفعلهم تساوينا في اللوم، فنزلوا بالصحن الغربي القبلي(الجنوبي) من ناحية أولاد حمد، وقد تلطف معهم سكان الوادي ورقوا لحالهم حيث لا يمنعون لهم مساعدة. ويضيف كاتبنا أنه بقي يبحث عن الباقي الهمامة فوجدهم نازلين بالوادي[63]، وفي هذه الأثناء قدم إلينا الكماندة "كروزي"[64] ومن معه من الكولون، فذهبنا وأرجعنا الهمامة النازلين بالوادي حتى رسم الجريد[65]. ويُذكر أن سبب إجلائهم عن الوادي هو أن بعض النساء منهم زنت بعبيد ابن إدريس فانتهرهن ذلك الخليفة فتعاصين عليه وتعنتن؛ فطردهم عن سوف لمواطنهم خاضعين، وكان ذلك في أواخر 1296هـ/1874م[66].

وبعد أن طرد خليفة ابن إدريس الهمامة وردّهم إلى أرضهم اغتاظوا على أهل الوادي جميعا، فصاروا من ذلك الوقت يغيرون على قوافل السوافة ومواشيهم سلبا ونهبا سواء التي تدخل أرض تونس، أو تلك التي تجوب الصحاري القبلية خاصة، وهو ما ثبت من خلال وثيقتين مسجلتين في المحكمة الشرعية بالوادي، الأولى مؤرخة في 23 جمادى الأولى 1292هـ الموافق لـ 17 جوان 1875م، وفحواها سلب عدد من الجمال والغنم لأناس من الوادي في نفطة التونسية؛ عند فرارهم من بطش المستعمر الفرنسي، وتقول الوثيقة: "أن المكرم محمد بن نصيب العزالي الساكن بالصحراء والمكرم زكريا بن سعد بن زكريا القبيل والسكنى على معنى الإشهاد الصادر منهما والمنقول عنهما وشهادهما على قول واحد ... وفي علمهما وتحقيق أمرهما أنهما عاينا أخذ الهمامة للعبابسة[67] من عرب الواد، وهي إذ ذلك بالموضع المسمى سبع أبيار ببلد نفطة وذلك المغصوب هو: جملين جدعين، وستة من الإبل، وسبعة وثلاثون شاتا، ومخرور؛ وذلك حين فرارهما من الدولة

الفرانصوية سنة 1291م وهذا في علمهما وبه شهدا مسؤولة منهما بعد الطلب ممن سمع ما ذكر"[68].

والوثيقة الثانية مؤرخة في 18 جوان 1875م الموافق 24 جمادى الأولى 1292هـ تبين إغارة الهمامة على بعض من ربايع الوادي وسلبهم ممتلكاتهم من الإبل والغنم، ونص الوثيقة كالآتي: "حضر لدى قاضي المحكمة الشرعية بالوادي، المكرم عون بن تخيمة الربعي والشيخ عطا الله بن المسعود القبيل من سكان الواد حرفة الأول الرعاية والثاني الشياخة، وذكرا على معنى الإشهاد الصادر منهما والمنقول عنهما وأنهما يعرفون المكرم مسعود ين عثمان والمكرم أخيه فرج الجميع عرش الربايع اسما وعينا ويشهدان مع ذلك بأنه سنة 1291هـ في موضع يقال له بير العلاونه أغار أنفار من الهمامة على المذكورين، أخذوا للأول لفحة حجلة قارح السن، وللثاني جملا أصفر اللون جدع في سنه، وعشرة انعاج على وجه الغصب والقهر والعدوان، كل دلك في علمهما وبه شهدا وعلى ذلك قيدت شهادتهما هنا مسؤولة منهما لطالبها حصول المعرفة التامة بالجميع[69].

وقد ذاقت أنفس الطروديون ذرعا بتصرفات الهمامة وكثرت المناوشات بين الطرفين؛ مما حدى بأهل الوادي بجعل أناسا منهم في مواضع متعددة على التخوم من أجل الحراسة ليلا ونهارا، وإذا أحسوا بشيء يخبرون به السوافة في الحين ليتداركوا الأمر قبل فواته، ولما سمع الهمامة بذلك جمعوا أعدادا غفيرة من كل طائفة من طوائف العرب، ووصل الخبر للوادي فخرج جمع كثير لمجابهة الهمامة؛ ووقعت معركة كبيرة بين الطرفية في حدود 1298هـ/1880م، وقد تراءى الجمعان في مكان فسيح، وحمي الوطيس بينهما، وقد مات من الطائفتين خلق كثير، فقد قُدر عدد الموتى من الوادي حوالي أحد وأربعون إنسانا، ومن الهمامة ثمانية وعشرون نفرا، ويسمى هذا العام في كرونولوجيا أحداث سوف بـ "عام بوقمزة" بين الواد والهمامة[70]، ولم يقع بعد ذلك الوقت حادث منهم(الهمامة)

يذكر في سوف[71]؛ لأنه كما نعرف تم احتلال تونس سنة 1881م من طرف الفرنسيين وأصبحت القبائل من الطرفين تحت رحمته.

وفي ما يتعلق بالوضع السياسي والإداري بالمنطقة خلال النصف الثاني من القرن 19م، تجدر الإشارة بأن السلطات الفرنسية أخذت تفكر في احتلال إقليم سوف منذ الأيام الأولى من سقوط مدينة قسنطينة في خريف عام 1837م، حيث برهنت الأحداث على أن سوف أو ما يُعرف في ذلك الوقت بـ "صحراء قسنطينة"؛ هي بمثابة قاعدة خلفية للمجاهدين وزعماء الثورات بالجزائر، وميدانا ملائما للثائرين[72]. وإن احتلال إقليم وادي سوف في 10 ديسمبر 1854م ما هي إلا حلقة من حلقات التوسع الاستعماري، لا سيما وأن هذه المنطقة كانت تحتل مكانة هامة، وذات موقع استراتيجي متميز. وقد افتتح صاحب الرسالة خطابه بعبارة تدل على اجتياح القوات الفرنسية منطقة سوف، فقال: "... وسبب ولايتي أنه لما أتى سعادة الجنرال ديفو إلى سوف أول مرة"[73]، والسؤال المطروح، لماذا لم يفصح كاتبنا عن الطبيعة الحقيقية لهذا الدخيل؟ أقناعة بقوته وحضارته وشدة بأسه والخوف من نقمته، أم هو الطمع في المنصب والاستكانة للمحتل.

وعندما اشتدت شوكة المقاومة الشعبية في الجنوب الشرقي الجزائري في بداية 1871م عهد الفرنسيون إلى حكامهم المحليين أمر مواجهتها في أفريل 1871م، إذ أوكلت ذلك إلى علي باي ومحمد الصغير بن قانة لكنهم فشلوا؛ لذلك قرر الفرنسيون إيفاد جيش فرنسي بقيادة الجنرال لاكروا الذي استطاع انتزاع ورقلة مطلع سنة 1872م، ووصل إلى تقرت في 28 فيفري 1872م[74]، ثم اتجه الجنرال ومن معه نحو وادي سوف، وبحث سبب الاضطرابات الأخيرة، ثم قام بتقييم عام للوضع، وأعلن بتغييرات هامة في سلك الإدارة المحلية، أبرزها تعيين "علي باي" على رأس قيادة جديدة في باتنة[75]، والذي كان محل سخط وتذمر من السكان.

وفي أعقاب هذه الأحداث خرج الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال ليبير – خليفة لاكروا على مقاطعة فسنطينة – في 30 يناير 1874م إلى الصحراء الشرقية، بحيث زار تقرت ومنها توجه إلى سوف في فبراير سنة 1874م؛ للتحري في قضية العربي المملوك الهالك، وملاحقة الثائر البطل بوشوسة، فدخل من جهة ورماس، وتناول الغذاء في كوينين، ثم واصل هو وجنوده الطريق إلى الوادي حيث وضعوا خيامهم حول القصبة. وقد طلب حضور شيوخ سوف وأعيانها، فحضر حوالي 200 منهم، ثم خاطبهم معا يلومهم في ترك قتلة العربي المملوك، وأعلن عن تغييرات هامة على مستوى الإدارة المحلية، وقسمت سوف إداريا إلى قسمين أو صفين، أحدهما صف طرود، وآخر صف أولاد سعود، وجعل على كلا منهما تابعا لآغا تقرت. ونلاحظ أن الجنرال ألغى منصب القايد الواحد على كل سوف، وهو الإجراء الذي سيبقى جاريا إلى حوالي 1887م[76].

وقد طبقت فرنسا في هذه الفترة أيضا ما يعرف بنظام الخلفاء والشيوخ، حيث تشير الوثيقة إلى أن ديفو عيّن "شيوخا" الذين يمثلون القبائل ويتبعون مباشرة القياد والخلفاء، في المنطقة سواء من أولاد سعود أو طرود(عرشي المصاعبة والأعشاش)، ويقول صاحب الرسالة: "... ولما رجع من سوف ترك فيها مشايخ من أولاد سعود وسوف ونحن في ذلك كبير عرش وصرت نخدم في المشايخ الذين جعلهم سعادة الجنرال المذكور". وقد أفصحت الوثيقة عن بعض أسماء هؤلاء الشيوخ الذين كانوا بكوينين قبل فيفري 1872 وهما: أبو بكر بن عباس، والحاج بالقاسم بن السخري. وعندما زار الجنرال لاكروا سوف عزل الشيخين السابقين، وعيّن مكانهما "علي بن أحمد" (الكاتب) شيخا على كوينين لخدمته مع الدولة –كما يقول– في 28 فيفري 1872م. ثم تمت ترقيته من طرف الحاكم شانزي حيث نُصِّب (كاتبنا علي بن أحمد) خليفة على عرش أولاد سعود، حيث يقول في رسالته: "... فأنعم علينا سعادة السيد الجنرال شانزي والي ولاية الجزاير بوظيف خليفة مستقل وندفع الرابول(التقارير) إلى الحكام ببسكرة"[77].

وعندما أدرك الضباط الفرنسيون أنه لا يمكن أن يتعاملوا مع رجال إمعات بدل الزعماء المحليين الحقيقيين، إذ بعد زيارة الوالي العام للجزائر "تيرمان" إلى تقرت وسوف، جاءت التعيينات في 25 أوت 1884م للقياد المحليين، فابن تواتي قايد على عرش المصاعبة ومحمد بن موسى قايد على عرش الأعشاش[78]، وعُيِّن "علي بن أحمد" قايد على عرش أولاد سعود، وقد جاء في رسالته: "وفي سنة 1884م قدم إلى تقرت سعادة السيد نورتيرمان والي ولاية الجزائر وتلاقيته(كذا) بتقرت صحبة السيد الليطنة بلاشير وقت ولايته بسوف، ومن تقرت توجه إلى سوف، ولما رجع ووصل إلى الجزاير أنعم علي بالارتقاء في وظيف القيادة على أولاد سعود وذلك في يوم 25 أوت سنة 1884م[79]. وقد بقي هذا القايد إلى حين كتابة رسالته السابقة المؤرخة في 1892م، واستمر الوضع إلى أواخر القرن 19م.

لم يكن لدى القياد والشيوخ في تلك الفترة حرية التصرف والحل والعقد، ومهمتهم تنحصر في التبليغ والإعلام عن التشويش الحاصل حسب تعبير الرسالة، ونقل الانشغال إلى الحكام الفرنسيين؛ هؤلاء فقط الذين لهم حق النظر وإصدار الأحكام. وقد وردت إشارة مهمة في رسالة كاتبنا، في شأن المهام الموكلة إلى أولئك القياد والخلفاء وخاصة تلك المتعلقة بالجوسسة أو ما يسمى بعيون الصحراء[80] في كلا البلدين، وهي طريقة قديمة ومألوفة عند الفرنسيين، بحيث يعمدون إلى تجنيد بعض السكان في المناطق الحدودية، يكونون عيونهم الساهرة على الطرقات والمناطق النائية، وهؤلاء في الغالب هم تحت إمرة القايد أو شيخ القبيلة أو شيخ المدينة، على اعتبار أنهم بعد الاحتلال أصبحوا موظفين لدى تلك السلطات للسهر على راحة المواطنين وتسيير أمورهم وقد كانت الإدارة الفرنسية تهتم بهذه الفئة من الأهالي كثيرا، نظير الخدمات التي يقدّمونها لها بكل اخلاص[81]. وجاء في الوثيقة ذكر بعض الأسماء السوفية الماكثة في الجريد التي ساعدت الفرنسيين في احتلال تونس من خلال المعلومات التخابرية، حيث يقول: "وعندما عين

القبطان ديبرتير حاكما على سوف، بدأ يتقصى الأخبار عن الجريد، وكان (كاتبنا) يأتي بكل ما يأتيه من خبر عن الجريد من عند أبناء عمه الساكنين بالجريد أمثال: عبد الله بن علي، بالقاسم بن بوعكاز، وعمر بن الذهبي، ومحمد تونسي بن صالح بن مبارك، إلا ونبلغ به القبطان المزبور، حسبما أخبرته بجواب مؤرخ في يوم 23 ديسمبر 1881م، وبجواب مؤرخ في يوم 28 اكتوبر 1882م"[82].

وكما شارك بعض من السوافة في غزو الشقيقة تونس مع الطابور الفرنسي الذي دخل من جهة الجريد، كما أفادنا صاحب الرسالة – الذي شارك هو الآخر كجندي في المحلة – بأسماء الضباط الفرنسيين الذين قادوا الحملة، فيقول: "ولما عزم السيد الكلونيل نوبل والسيد الكماندة لفروه والسيد القبطان ديبرتير على الذهاب إلى الجريد وصحبتهم المحلة، سافرت معهم إلى الجريد وأخذت معي البعض من أناس أولاد سعود، ولما وصلنا إلى بوناب تلاقونا أبناء عمي الذين هم ماكثين بالجريد ليتلاقوا السادات الحكام المذكورين في البير المسمى بوناب، ويدخلوا بالمحلة إلى الجريد حيث أني أوصيتهم وحرضتهم ليكونوا خدام طايعين للدولة الفرانصوية... فامتثلوا أبناء عمي وتلاقوا السادات المذكورين في البير المزبور، وفرحوا بهم فرحا شديدا وشكروا صنيعهم السادات المزبورين"[83].

خاتمة: ومما سبق ذكره يمكن أن نجمل القول، بأن مضمون الرسالة يتماشى مع الأحداث التاريخية التي وقعت في الزمن نفسه الذي تنتمي إليه الوثيقة، ولم تخرج عن السياق التاريخي العام للفترة المدروسة، حيث شهد النصف الثاني من القرن 19م تطورات متسارعة؛ بدخول واحات الجزائر ومن بينها منطقة وادي سوف، ضمن الرُّبوع التي دخلت تحت عمليات الإخضاع الفرنسية؛ وقد اتخذ الاستدمار الفرنسي سياسة: "حكم البلاد بأبناء البلاد"؛ وذلك باستغلال بعض زعماء الخيام الكبيرة، والقبائل والعروش العريقة، لحكم هذه البلاد؛ مقابل منحهم مراسم التنصيب في الآغوية أو القيادة، وقد

قدّم بعض هؤلاء خدمات لا تحصى بِعدٍّ، بل كان بعضهم أحرص على مصالح المستعمِر من المستعمَر نفسه.

وعن القيمة التاريخية للرسالة، ورغم ما يشوب خطاب صاحبها من التملق والتزلف؛ إلا أنها أطلعتنا على معلومات غاية في الضبط والإحكام؛ حيث جاءت الوثيقة أشبه بسرد تاريخي لواقع الحال الذي عاشه كاتبها، في بعض أحداثها له سبق القلم فيها، ومشاهد فصول الرسالة في جُلِّها موثق بالتقويم الميلادي، مع وجود زلّةٍ للقلم في بعضها. بدأت الرسالة بالاجتياح الفرنسي للمنطقة، ثم عرّجت على محطات هامة من تاريخ البلدة في جانبيه السياسي والاجتماعي، وأعطت صورة على المهمات الموكلة للمتعاونين مع السلطة الفرنسية، ودور هؤلاء في التهدئة حسب لغة المستعمِر، وفي ثناياها تكشف الوثيقة على أسماء الضباط والحكام الفرنسيين الذين زاروا سوف قبل وبعد الحكم الفرنسي المباشر بالوادي. وفي نهاية الأمر فالوثيقة تشكل مصدرا تاريخيا مهما تؤرخ لفترة العهد الفرنسي في وادي طرود وعدوان.

الهوامش والإحالات:

1- قاسم يزبك، **التاريخ ومنهج البحث التاريخي**، دار الفكر اللبناني، بيروت 1990م، ص. 89.

2- البيوغرافيا: كلمة غير عربية، أصلها في الإنجليزية(Biography)، وتعني دليل كتابة السير الذاتية والحياتية، ويقابلها في تراثنا الأدبي والديني مصطلحي السير والسير الذاتية. وتختلف البيوغرافيا عن الببليوجرافيا، فالببليوجرافيا تعني وصف الكتب، أما البيوغرافيا فهي مساحة تغطية السيرة الذاتية بشكل مختلف لشخصيات متميزة. ينظر: فضيل دليو، **المنهج البيوغرافي، استعمال السير الذاتية والحياتية في علم الاجتماع**، [على الانترنيت]، تاريخ التصفح، 2017/1/25م.
http://www.forum.ok-eg.com.

3- أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج. 3، دار البصائر، الجزائر 2007م، ص ص. 309-311.

4- نفسه، ص. 310.

5- الأرشيف الولائي بالوادي، **رسالة موجهة من القايد علي بن أحمد إلى حاكم سوف الفرنسي**، مؤرخة في 1892/10/03م، ص. 1.

6- أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج. 3، ص. 309.

7- يذكر العوامر أن الزبيديين حين دخلوا افريقية اجتمعوا في ناحية واحدة بقرية قرب المهدية بشمال شرق تونس، ومنه تفرقوا نزل بعضهم في نفطة، ومنهم من ذهبوا إلى الزاب واستقروا فيه. للمزيد ينظر: إبراهيم العوامر، **الصروف في تاريخ سوف**، مخ. ج. 2، لدينا نسخة منه، ص ص، 65-81.

8- الأرشيف الولائي بالوادي، **ترجمة موجزة للقايد علي بن أحمد**، مؤرخة في 1918/7/4م.

9- وهو **القبطان ريكو** Capitaine Ricco: حاكم عسكري لملحقة الوادي في الفترة 1887-1893م.

10- **ديزفو** أو **ديفو** Desveaux: من مواليد 1810/11/1م بباريس، انخرط في الحياة العسكرية وعمره لم يتعد 19 سنة، تولى عدة مناصب عليا مثل: الحاكم العام لباتنة (1852-1855)، قائدا للقطاع القسنطيني من سنة 1859 إلى سنة 1864، وعمل نائبا لحاكم الجزائر من سنة 1864 إلى سنة 1869م، وشارك في سنة 1869 في أعمال لجنة الجزائر. كان يجيد عدة لغات ومنها العربية، وكان شغوفا بالرحلات وحب المغامرات وتوفي سنة 1884م. ينظر: عميراوي احميدة، **من تاريخ الجزائر الحديث**، مطبوعات جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، مارس 2000م، ص ص. 151-152.

11- مجيء الجنرال المذكور أول مرة إلى وادي سوف؛ يقصد هنا احتلال القوات الفرنسية الغازية للمنطقة في التاريخ 14 ديسمبر 1954م. ينظر: غنابزية علي، **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر**، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر 2001.

12- أطلق عليها صاحب الصروف "الواقعة الكبرى بسوف"، سيأتي الحديث عنها لاحقا.

13- يكون تاريخ الواقعة في ماي 1871م استنادا لقول العوامر، بأن الوقعة حدثت بعد شهرين من هجوم الشريف بوشوشة على قمار المؤرخ في مارس 1871م.

14- هذا التاريخ مكرر مرتين، الأولى يؤرخ به لزيارة لكروا إلى تقرت، والثاني يثبت به تاريخ تنصيبه كخليفة على أولاد سعود من طرف لكروا أثناء زيارته لسوف، والظاهر أن التاريخ يناسب الثاني؛ لكروا سيطر على تقرت في أواخر سنة 1871.

15- **الجنرال دو لاكروا فوبوا** De Lacroix Vaubois: القائد العام لقطاع قسنطينة خلال السبعينيات.

16- الصواب مكافأة.

17- من الضمان، ويقصد محضر التنصيب.

18- يبدو أن الكاتب اختلط عليه الأمر في وضع تاريخ 13 جويلية 1884م، والأقرب الى الحقيقة أن زيارة الجنرال المذكور إلى سوف، والتي قلد فيها كاتبنا منصب الخليفة على أولاد سعود، كانت في التاريخ 27 فبراير 1874م. ينظر: أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية** 1860-1900، ج. 1، دار البصائر، الجزائر 2007، ص ص. 293.

19- **الجنرال ليبير**: جنرال فرنسي خلف لاكروا على رأس قطاع قسنطينة، والذي كُلّف بالقضاء على بوشوشة. للمزيد حول دوره في صحراء قسنطينة، ينظر: سعد الله، **الحركة الوطنية**..، ج. 1، ص ص. 295،285،284.

20- موضع بين بسكرة والوادي. للمزيد حول سبب تسمية الموضع "أميه التاجر" أو "ماء التاجر". ينظر: محمد العدواني، **تاريخ العدواني**، تح. تع. أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر 2011، ص. 162.

21- يسمى هذا باسم من حَفَرَه، وهو كما أورد العدواني: "سيدي محمد بن علي بن محمد أبو ناب". للمزيد ينظر: محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص. 120-121.

22- وهي من الكلمة الفرنسية rapport والتي تترجم إلى العربية بكلمة "تقرير"؛ أي أنه أصبح يرفع التقارير التي تخص منطقته إلى حكام بسكرة، بدل تقرت كما كان في السابق.

23- ناس القبلة بالقاف المعقوفة، وهم سكان أقصى الجنوب من الطوارق وغيرهم.

24- الطاشمة: كلمة فرنسية "détachement"؛ وتعني وحدة عسكرية فرنسية منتدبة لمهمة معينة.

25- **القبطان ديبرتير** Deporter: انتدب إلى سوف وعُين قائد على الطابور المرابط بالدبيلة (الوادي) في العام 1881م. وللمزيد حول دوره الاستعماري في سوف وتونس، ينظر: أبو القسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج. 4، دار البصائر، الجزائر 2007، ص ص. 50-51؛ إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية** 1837-1934، دار هومة، الجزائر 2005، ص. 196.

26- **عام بوقمزة**(بالقاف المعقوفة): واقعة بين أهل الوادي والهمامة، حدثت في هذا المكان مؤرخة في سنة 1880م. سيأتي الحديث عن الغارات المتبادلة بين الطرفين لاحقا.

27- التاريخ نفسه مكرر في الأصل، فقمنا بحذف المكرر.

28- **الكولونيل نوبل**: وهو العقيد "لونوبل" Lenoble ينتمي للفرقة الثالثة للصبايحية، وكلف بقيادة فيلق صغير للحراسة والمراقبة بالوادي في سنة 1881م. إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص. 196.

29- **عسكر اجويّوا**: وهي فرقة عسكرية فرنسية، ومن أشد الفرق انحطاطا وإجراما، وكانت تلك الفرقة بمنزلة المنفى للجنود المشاغبين والمتمردين، الذين يتم إرسالهم إلى الصحراء القاحلة والظروف المناخية القاسية، وقد كان لهذه الطائفة تواجد في بلدة الدبيلة القديمة التي عَرفت أول مركز عسكري فرنسي في سوف. ينظر: خالد سليمان، "تطاوين المتدفقة بين السكون والصمت"، **مجلة العربي**، ع. 661، تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت، ديسمبر 2013، ص. 60؛ لقاء مع: نور الدين جوادي، البشير جوادي، من أبناء بلدة الدبيلة، في التاريخ 2014/01/30 مساء.

30- وهو الحاكم العام للجزائر **لويس تيرمان** Louis Tirman (1837-1899م). للمزيد حوله ينظر: عدّة بن داهة، **الاستيطان والصراع حول الملكية** 1830-1962م، ج. 2، طبعة وزارة المجاهدين، 2008م، ص. 491.

31- **الليطنة بلاشير**: وهو الملازم الأول بلاشير Lieutenant Blachérer تولى قيادة الفرقة العسكرية الفرنسية في في سوف خلال الفترة (1883-1885). ينظر إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص. 196؛ عاشوري قمعون، **الشيخان(إبراهيم العوامر والهاشمي حسني)**، مطبعة مزوار الوادي، الجزائر 2010م، ص. 16.

32- **القبطان جنا** Capitaine Janin: يعد العقيد جنا أول قائد لملحقة الوادي، حكم في الفترة 1885-1886م.

33- كلمة فرنسية معربة وهي: Officiers وترجمتها "الضباط".

34- العقيد بوجا Capitaine Pujat تولى الحكم على سوف في الفترة 1893-1894م. عاشوري، **الشيخان**، ص. 17.

35- لعله من مدينة جنوة الإيطالية.

36- الشيباني بن بلغيث، **بحوث ودراسات في تاريخ تونس الحديث والمعاصر**، الأطلسية للنشر، تونس 2001، ص. 206.

37- الرسالة السالفة الذكر.

38- الشيباني بن بلغيث، المرجع السابق، ص. 206.

39- أو طراد وهو زعيم طرود، وقد تلقبوا باسمه. محمد العدواني، المصدر السابق، ص ص. 108-109.

40- اللُّجّة، موضع شمال شرق بلدة الزقم الحالية وإحدى قرى سوف، وقد نُسب العدواني إليها بإضافة "اللجي" إلى اسمه. محمد العدواني، المصدر السابق، ص. 77.

41- نفسه، ص ص. 96-101.

42- نفسه، ص. 92.

43- نفسه، ص ص. 317-119؛ علي غنابزية، المرجع السابق، ص ص. 105، 106.

44- نفسه، ص ص. 48-49.

45-إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص. 191.

46- الأرشيف الولائي بالوادي، **رسالة موجهة من القايد علي بن أحمد إلى حاكم سوف**...، ص. 1.

47- إبراهيم العوامر، المصدر السابق، ص. 56.

48- الأرشيف الولائي بالوادي، **رسالة موجهة من القايد علي بن أحمد إلى حاكم سوف**...، ص. 1.

49- إبراهيم العوامر، المصدر السابق، ص. 57.

50- الأرشيف الولائي بالوادي، **رسالة موجهة من القايد علي بن أحمد إلى حاكم سوف**...، ص. 1.

51- فاطمة بن سليمان، **الأرض والهوية (نشوء الدولة الترابية في تونس 1574-1881)**، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 2009م، ص. 308.

52- وللأمثلة على ذلك ينظر: **الأرشيف الوطني التونسي**، صندوق، 212. ملف، 241. وثيقة، 72. بتاريخ 18 سبتمبر 1848م.

53- فاطمة بن سليمان، المرجع السابق، ص. 308.

54- نشير إلى وجود عدة وثائق في الأرشيف التونسي تتناول هذه النزاعات الحدودية وأهمها: الصندوق، 212، الملفات: 229، 230، 234، 241، (الملف 242 عبارة عن مراسلات وتقارير صادرة عن قنصل فرنسا بتونس متعلّقة بإغارات العروش على الحدود التونسية – الجزائرية وأعمال النهب والقتل ومطاردة الثوار، وهو يحتوي على 221 وثيقة)؛ الصندوق، 232، الملف 448.

55- المصدر نفسه، صندوق، 184. ملف، 1039. وثيقة، 91. نقلا عن الشيباني بن بلغيث، المرجع السابق، ص. 227.

56- محمد الطاهر التليلي، "فذلكة تاريخية عن منطقة سوف بالجزائر"، تع. أبو القاسم سعد الله، **مجلة العربي**، س. 39، ج. 5، 6، مجلة شهرية تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري، العربية السعودية، جانفي- فيفري، 2004. ص ص. 448-450.

57- **الأرشيف الوطني التونسي**، صندوق، 166. ملف، 830. وثيقة 135. نقلا عن الشيباني بن بلغيث، المرجع السابق، ص. 228.

58- فاطمة بن سليمان، المرجع السابق، ص. 310.

59- الأرشيف الولائي بالوادي، **رسالة موجهة من القايد علي بن أحمد إلى حاكم سوف**...، ص. 2.

60- إبراهيم العوامر، المصدر السابق، ص. 58.

61- الأرشيف الولائي بالوادي، **رسالة موجهة من القايد علي بن أحمد إلى حاكم سوف**...، ص. 2.

62- المصدر نفسه.

63- إبراهيم العوامر، المصدر السابق، ص. 59.

64- كروزي (Crouzet): أحد الضباط الفرنسيين كان يشغل منصب قائد بسكرة في هذه الأثناء، وقد عزل من منصبه وعين مكانه جليز(Gellez) بعد مقتل القاضي مسعود مسموما، شقيق الشيخ أمحمد يحي صاحب ثورة العامري بالزيبان. ينظر: شهرزاد شلبي، **ثورة واحة العامري وعلاقتها بالمقاومة الشعبية بمنطقة الزيبان في القرن 19م**، ماجستير في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، جامعة الحاج لخضر، باتنة 2009/2008، ص. 90.

65- الأرشيف الولائي بالوادي، **رسالة موجهة من القايد علي بن أحمد إلى حاكم سوف**..، ص. 2.

66- إبراهيم العوامر، المصدر السابق، ص. 59.

67- العبابسة إحدى فصائل فرقة العزازلة عرش المصاعبة بالوادي، وينتسبون إلى العباس بن علي بن عزال، والعزّال هو الذي سميت باسمه الفرقة المذكورة، وأصله من المغرب مات عند نزوحه في تماسين، لكن ابنيه (علي وبالقاسم) وأبناؤهما الستة واصلوا الطريق، فنزلوا بالقرب من محل تكسبت القديمة، وتكونت من نسلهم فرقة العزالة بالوادي. إبراهيم العوامر، المصدر السابق، ص ص. 68-69.

68- رسم إشهاد، ع. 217، الصادر عن المحكمة الشرعية بالوادي، مؤرخ في: 24 جمادى الأولى 1292هـ الموافق لـ 1875/06/18م.

69- رسم إشهاد، ع. 218، الصادر عن المحكمة الشرعية بالوادي، مؤرخ في: 23 جمادى الأولى 1292هـ الموافق لـ 1875/06/17م.

70- **أرشيف بلدية حاسي خليفة**، كرونولوجيا أحداث سوف، كُتبت في 1961/10/04م، الوادي. وقد أرخ السوافة لغارات الهمامة بعدة أعوام وبأسماء مختلفة نذكر منها: عام الهمامة 1855م، عام النجع 1870م، عام الهمامة 1873م، عام بوقمزة 1880م وغيرهم.

71- إبراهيم العوامر، المصدر السابق، ص. 59.

72- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص. 143.

73- الأرشيف الولائي بالوادي، **رسالة موجهة من القايد علي بن أحمد إلى حاكم سوف**..، ص. 2.

74- نفسه.

75- يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر ميلادي**، دار البصائر، الجزائر 2009، ص. 164.

76- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص. 193، 294-295. .

77- الأرشيف الولائي بالوادي، **رسالة موجهة من القايد علي بن أحمد إلى حاكم سوف**..، ص ص. 2-3.

78- ينظر: أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء**، ج. 5، ص. 24؛ إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص. 195.

79- الأرشيف الولائي بالوادي، **رسالة موجهة من القايد علي بن أحمد إلى حاكم سوف**..، ص. 4.

80- نور الدين صحراوي، **المراقبة الفرنسية للحدود الشرقية وتأثيرها على التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881- 1954م، من خلال الوثائق الأرشيفية**، أعمال ملتقى التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881-1954م، المنعقد يومي 10-2013/11م، جامعة الوادي، الجزائر. ص. 18.

81- نفسه، الصفحة نفسها.

82- الأرشيف الولائي بالوادي، **رسالة موجهة من القايد علي بن أحمد إلى حاكم سوف**..، ص. 3.

83- المصدر نفسه، ص ص. 3-4.